عيسى الشيخ حسن:
eassash@hotmail.com:

صاحب استحداث المدارس المستقلة كثير من الجدل والنقاش، وبما أننا محافظون بطبعنا فإنه من الصعوبة بمكان أن نقبل بأفكار جديدة بسهولة، مفضلين الإبقاء على نظم سابقة مضمونة النتائج، على الرغم مما آلت إليه أحوال التعليم في الوطن العربي في السنوات الأخيرة من تدن واضح في قيم المخرجات، التي تكشف عن أمية ثقافية كبيرة تتصف بها أجيال وقعت ضحية التلقين وحقن المعلومات الجاهزة في الكشاكيل والدروس الخصوصية من أجل غاية وحيدة هي الوظيفة التي تنتظرها الأسرة العربية بفارغ الصبر.

وإن كانت وظيفة «الميري» سابقاً مدعاة للتفاخر بانتماء صاحبها إلى الطبقة الوسطى العربية التي تلعب دوراً كبيراً في التغيرات الاجتماعية التي عصفت بالحياة العربية خمسينيات القرن الفائت، فإن الوظيفة هذه الأيام تأتي كعامل أمان مؤقت للأسرة العربية من زحف البطالة المتعاظم، وفي ظروف صعبة يتراجع فيها الروحي أمام المادي، والانتماء أمام المصلحة.

فانتقل التعليم في استراتيجياته الكبرى من إعادة تأهيل للأمة في مواجهة التحديات إلى إكساب مهارات للفرد تضمن له مواجهة المستقبل القاتم، بعد الهزائم الكبرى التي منينا بها على أكثر من صعيد.

ولهذا بات التعليم الوسيلة المتاحة والجسر الممكن إلى الأمان الذي يفترض وجوده على الشاطئ الآخر من الحياة، الجسر الذي يجب عبوره بصبر ودأب، ولهذا ظلّت المدرسة العربية بإحداثياتها العتيدة: «العقاب ـ الواجب ـ الامتحان ـ الدوام الطويل» مجرد ذكريات يمكن رميها في صندوق الذاكرة الأسود، ظلّ التعليم مرتبطاً بطعم المرارة، الذي أتى عليه صراحة الإمام الشافعي في قصيدة وعظية:

ومن لم يذق «مر التعلّم» ساعة

تجرع ذلّ الجهل طول حياته

فالتعلّم عند الشافعي جرعة دواء مرة، لكنها الترياق الضروري الواقي من مذلّة الجهل، الذي لم يزل مخيماً على المنطقة العربية، حيث تسجل الأمية نسباً مرتفعة في أكثر من بلاد عربي. فاجتمعت على الأمة مرارة الجهل ومرارة التعلّم. وإن كانت بعض التجارب التربوية العربية طرحت مفهوم حلاوة التعلّم، نتيجة المثاقفة مع التجارب التربوية الحديثة التي سجلت تنامياً ملحوظاً، فإنها ونتيجة المعطيات القاتمة في

الربع الأخير من القرن العشرين، من تهالك البنية التحتية، وقلة فرص العمل، مما سد الطريق أمام بهجة التعلّم.

من وجهة نظري كمدرس في المدارس المستقلّة فإن خلخلة كبيرة في بنية التعليم حدثت في ظل وقت قصير نسبياً، تنتصر للعمل الجديد على الرغم من كثير من نقاط الضعف التي يمكن تقويتها، هذه الخلخلة سجلت انتصاراً واضحاً لمفهوم المبادرة الخلاّقة، والإبداع التربوي والإداري، وفتح الباب أمام كلّ الاحتمالات. في مناخ يمكن فيه توقع مفاجآت يومية مبهجة تتقاسم مصادرها أضلاع مثلث: «الإداري ـ المعلم ـ الطالب».

بهجة التعلّم في المدارس المستقلة ترافقها بهجة التعليم أيضاً، حين تتحول من وظيفة إلى عمل ممتع وإن كان لا يخلومن المشقة.
من خلال عملي كمهتم باللغة العربية كاتباً ومدرساً وجدت في المستقلة الفرصة الأمثل لتتبع المواهب الأدبية في الشباب اليافعين الذين أبدوا قدرات واعدة في الكتابة والبحث بحماسة منقطعة النظير، كان سببها الحرية المتاحة أمام معلّم الصفّ أن يتمثّل معايير محددة بأكثر من طريقة، يحددها وفق تصور مسبق لمستوى طلابه وقدراتهم ومهاراتهم. الأمر الذي يمكن التفصيل فيه في المقالات التالية كحكايات في ذمة الماضي تظلّ شاهداً على خصب الإبداع المتناثر في الأرض العربية.